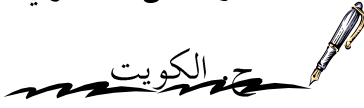


إشكالية دلالة النص التاريخي •

أ.د. ناصر الدين سعيدوني



إذا كانت الحضارة هي الوجود كما صنعه الإنسان فإن التاريخ هو دراسة ذلك الوجود من خلال تفاعل الإنسان مع بيئته وظروف عصره سلباً أو إيجاباً، وهذا ما جعل التاريخ بحق الوسيلة الفضلى التي تمكن العقل البشري من تلمس ماضي الإنسان في مظاهره المادية وروابطه الاجتماعية. فحياة البشرية من خلال أحداث التاريخ ما هي إلا حوار بين الماضي والحاضر وحوار بين الأجيال وحوار بين الإنسان والزمن وحوار بين كاتب التاريخ وبين مستقره وقارئه. من هذا المنطلق اكتسب النص التاريخي (1) أهمية بالغة ومكانة مرموقة في تكوين شخصية الفرد وبلورة ثقافة المجتمع.

إن معالجة مسألة دلالة النص التاريخي تفرض نفسها اليوم على القارئ العربي لكونها تستمد قيمتها من قيمة القضايا التي يتناولها هذا النص والمسائل التي يتعرض لها، ومن هنا جاءت صعوبة فهم التوجهات الثقافية المعاصرة وتحليل واقع الذهنية العربية التي

• قدمت الأفكار الرئيسية لهذا البحث في : مؤتمر الكويت الدولي لتحليل الخطاب (26 - 28 مارس 2005) ، ونظراً لأهمية الإشكالية التي يطرحها ارتأينا تحويره وإعادة صياغته حتى تكتمل الفائدة منه .



تفضل الاستكانة إلى الماضي على التجاوب مع الحاضر. ومع اقتناعنا بأن تأزم الذهنية العربية اليوم بما يفرزه من تذبذب في المواقف واضطراب في القنوات وضبابية في الرؤية يعود في أساسه إلى قصورنا في تعاملنا مع واقعنا الثقافي وظروف بيئتنا ومتطلبات عصرنا، إلا أن ذلك يتعلق أيضا بفهمنا وتحليلنا للنص التاريخي، هذا النص الذي نحاول في هذا العرض تحليل دلالاته التاريخية انطلاقا من الموصفات التي يختص بها والأفكار التي يعبر عنها، وهذا ما يتطلب منا قبل كل شيء تحديد إشكالية معالجة النص التاريخي، فكما قال أرسطو بأن على من يرغبون في الوصول إلى الحقيقة أن يسألوا الأسئلة الصحيحة ، فإننا لا نجد مناصا من إثارة تساؤلين اثنين كفيلين بمساعدتنا على تحديد فهمنا لطبيعة النص التاريخي وتلمس المضامين والمعاني التي يحملها. فالتساؤل الأول : يتصل بمواصفات النص التاريخي مبنى ومعنى، والتساؤل الثاني : يتعرض إلى أصناف الخطاب التاريخي ، وذلك قبل أن نحاول تحديد الشروط الكفيلة بتجديد النص التاريخي من حيث صياغته وشروط عرضه وجعله أكثر تعبيرا عن حاجات وتطلعات القارئ العربي انطلاقا من القيم والأفكار التي يعبر عنها موروث الذاكرة التاريخية التي يختزنها.

أولا : مواصفات النص التاريخي

تتحكم في صياغة النص التاريخي طبيعة الموضوع ومؤهلات الباحث وشروط المنهج التاريخي، وهذا ما نحاول توضيحه في النقاط التالية :

1. إشكالية موضوع النص التاريخي :

يفرض النص التاريخي نفسه على القارئ على ضوء نوعية الموضوع الذي يعالجه وطبيعة المعلومات التي يعرضها، وتتحدد قيمته بمدى احترامه والتزامه بقواعد المنهج التاريخي (2)، فيعتبر النص التاريخي مساهمة جادة وإضافة جديدة تمكن صاحبه من فرض

حضوره الأدبي وتأكيد مكانته العلمية كاتبه نفسه وتسمح لقارئ أن ينتفع بمضمونها ، إذا توفرت فيها الشروط والمواصفات التالية :

1. أن يكون موضوع النص صادرا عن رغبة في البحث وليس نتاج ميل آبي ودافع عرضي، وأن يخصص له الجهد والوقت اللازمان لإنجازه.

2. أن يستند النص التاريخي إلى مصادر أولية كافية يمكن الوصول إليها وقراءتها والانتفاع بها.

3. أن يهدف النص إلى إضافة شيء جديد أو توضيح قضية غامضة أو تصحيح خطأ شائع أو إكمال نقص ملاحظ أو الإدلاء برأي خاص أو مناقشة أطروحات شائعة.

4. أن لا يكون محتوى النص موضوع دراسة سابقة وأن لا تكون القضايا التي يعرضها قد تمت معالجتها من قبل باحثين آخرين.

5. أن يتجنب موضوع النص دراسة الأحداث الآنية التي لا تزال انعكاساتها ماثلة وملموسة في الواقع وأن يتعد عن المشكلات المجردة والمفاهيم العامة والعلاقات المتشعبة، لافتقارها للمدى الزمني أو البعد التاريخي.

على أن النص التاريخي الذي يسترشد في اختيار موضوعه بالمواصفات السابقة لا يصبح قابلا للبحث إلا بعد تحديد "الإشكالية" التي تضبط خطته وتوجه العمل فيه، والمتمثلة أساسا في إثارة أسئلة غايتها ضبط الجوانب والاهتمامات وتحديد أبعاد الموضوع وتقنين طريقة تناوله وكيفية عرض نتائجه، وذلك حتى يمكن إخراج موضوع النص في وحدة متكاملة حسب الخطة الموضوعية.

تقوم الإشكالية على التساؤل وتهدف إلى التحليل وهما أساس عملية بناء النص التاريخي، فبدونهما يتحول النص إلى مجرد سرد متسلسل للأحداث في سياقها الزمني



(الكرونولوجي) أو عرضها الوصفي (الروائي). فالأخذ بالإشكالية يكسب النص التاريخي صفته العلمية لأنها الإطار المناسب بل الضروري للكشف عن الجوانب التي نبحت عنها والمنطلق الصحيح لتطبيق منهج البحث التاريخي القائم على التحري والنقد والوسيلة الكفيلة بفتح أعيننا على الجوانب المتعلقة بالمشاكل المثارة والآراء المطروحة.

تحدد إشكالية موضوع النص التاريخي بصياغة تساؤلات يفترض الإجابة عنها، وتتصاغ هذه التساؤلات انطلاقاً من فرضية تأخذ بعين الاعتبار أبعاد الموضوع وطبيعته ونوعية مصادره والغرض المتوخى منه، وهذا ما يتطلب من صاحب النص القراءة الواسعة حول موضوع نصه والإلمام بجوانبه والتعرف على القضايا المتعلقة به، بحيث يصبح الرقي بمستوى الإشكالية مرهون بالمداومة على البحث والاهتمام بطرح القضايا وإثارة التساؤلات فيما يكتبه أو يقرؤه من مواضيع تاريخية.

2. مؤهلات صاحب النص التاريخي :

يستمد النص التاريخي قيمته من مقدرة صاحبه على البحث وكفاءته في تطبيق منهج البحث التاريخي، وهذا ما يصبغ على مؤهلات صاحب النص وملكاته أهمية كبرى، فبغض النظر على الرغبة في البحث والتفرغ له وتكريس الجهد الضروري لإنجازه والقدرة على الوصول إلى المصادر وجمع المعلومات التي سبقت الإشارة إليها، فإن ملكة النقد والتحري وموهبة البرهنة والاستدلال واستقلالية الرأي وعدم مجازاة الآخرين فيما يعتبرونه حقيقة، كلها مواصفات أساسية في كاتب النص الجيد والأصيل والذي يتصف بالجادية والجدية والإقناع والتأثير لأنه المظهر الخارجي الذي يتعرف من خلاله القارئ على شخصية صاحب النص ، ما دام النص يشكل الوعاء الفكري الذي يضمه كاتب النص أفكاره

ويظهر من خلاله قدراته، وهذا ما عبر عنه الكاتب الفرنسي فينيلون (Fénelon) بقوله الأسلوب هو الرجل (3).

يواجه الباحث في إنتاجه للنص التاريخي تحديات ومخاطر بعضها يتصل بوسيلة التعبير من حيث اللغة والآخر يتعلق بموقفه من أحداث الماضي ومقدرته على تحليلها. فبالنسبة لوسيلة التواصل المتمثلة في الصياغة اللغوية يتوجب على الباحث في كتابته للنص التاريخي أن يكون متمكناً من اللغة وأن يمتلك الأسلوب المعبر عن المعلومات التي يتضمنها نصه، هذا النص الذي يفترض فيه أن يكون وسطاً بين السياق الأدبي الذي قد ينجر وراء الخيال ويغلب عليه الإطناب والمبالغة والاستطراد، وبين العرض العلمي الذي يأخذ بالألفاظ التقنية الجافة والتعابير العلمية المقننة، بحيث يلتزم بالسياق التاريخي الذي يجمع دقة المعنى وصحة المبنى وتفضيل العبارات المركزة والجمل البسيطة والعبارات الواضحة مع الحرص على سلامة اللغة وسلاسة الأسلوب وحسن التبليغ (4).

أما المخاطر والتحديات الناتجة عن موقف صاحب النص من الأحداث التي يعرضها فليس أقلها أوهامه المهنية عن ذاته وطموحه وحلمه في الإبداع وتذوقه لدراسة الماضي وردود فعله وتغير مزاجه بفعل متطلبات الحياة أو اندفاع الشباب إحباط الشيخوخة (5). فالتاريخ لا يتطور في نظام مقفل وأحداثه لا تمر في استعراض وتتابع، فهي بالنسبة للمؤرخ وقائع انتهى حدوثها وانقضى زمنها قبل أن يبدأ هو في التفكير فيها، وعليه أن يعيد توزيع الأدوار من خلالها على الأشخاص الذين ساهموا فيها حسب الطريقة التي يريد أن يراها عليها. وهذا ما يطرح مسألة أخلاقية صاحب النص على المحك، فهو الذي يقرر ما هو أمين وسليم وما هو مضمون وموثوق به وما هو منطقي وموضوعي ليضمنه النص، وهو الذي يعرض الاستنتاجات ويثبت البراهين ويسجل الآراء، الأمر الذي يستوجب في صاحب النص الاطلاع على المعارف الإنسانية والعلوم الاجتماعية التي لها صلة بموضوعه، لأنها

تزوده بالمادة التاريخية وتنبهه إلى جوانب قد يغفل عنها في بحثه فضلا على أنها تكسبه الخبرة في تحديد إشكالية موضوعه والوصول فيه إلى نتائج ملموسة (6).

مما سبق يتضح لنا أنه يفترض في صاحب النص التاريخي، أن يتصف بالمؤهلات التي تكسبه القدرة على البحث، وأن يكون ذا خيال مبدع وثقافة واسعة وفهم عميق للسلوك الاجتماعي ونظرة متزنة للظروف والملابسات التي أحاطت بالأحداث التي يعالجها، فيوطن نفسه على الالتزام بالصدق والأمانة والنزاهة والحياد والابتعاد عن الكذب والتزوير، والزهد في الشهرة، والنفور من التزلف والوصولية وعدم الانجرار وراء تأثير السلطة وضغط المصالح وتأثير الرأي العام، كما يتوجب عليه التشبث بالتفكير الحر الذي لا يجاري الآراء الشائعة، ولا يتقبل كل ما يتصل بالأسطورة والخرافة والتحليل الغائي في تفسير الأحداث.

3. متطلبات بناء النص التاريخي

يقوم بناء النص التاريخي على تطبيق قواعد المنهج التاريخي الذي تحددت خطواته بفضل التطور الذي عرفته الدراسات التاريخية في القرنين الماضيين (7)، بدءا بطرح الإشكالية ووضع الخطة الأولية وانتهاء بالصياغة التاريخية ومرورا بجمع المادة التاريخية ونقدها وتحليلها. فمنهج البحث التاريخي كما هو معروف يقوم في أساسه على ثلاث عمليات متتابعة : الأولى تتمثل في جمع المادة التاريخية التي بدونها ينتفي وجود النص التاريخي لكونه في أساسه جمع للمعلومات وتدوين مكثف للأحداث التاريخية. والثانية تتلخص في عملية النقد والتمحيص التي تنصب على ظاهر النص التاريخي من حيث نسبته لصاحبه أو صحة مضمونه أو تركيز على تحليل طبيعة المعلومات التي يتضمنها والظروف التي كتب فيها وتأثر بها ، أما العملية الثالثة الأساسية في المنهج التاريخي فتتعلق بصياغة المعلومات التي تم جمعها ونقدها (8).

كل ذلك يتطلب من صاحب النص جهداً إضافياً وتركيزاً خاصاً حتى يمكن له استخلاص النتائج والتغلب على المشاكل العديدة التي تتعلق بتحليل المعلومات وتركيب الأفكار وصياغة العبارات، فبدون تحليل المعلومات لا يمكن ترتيب المادة التاريخية لتأخذ شكل بحث، كما أنه بدون تركيب الأفكار يصعب تسجيل الحقائق وعرض الأحكام المتعلقة بها.

إن أهم إشكال يعترض المؤرخ في تحليله وتركيبه للنص التاريخي هو شح المصادر ونقص المادة التاريخية أو انعدامها، مما يتوجب عليه ملء الفجوات بمقارنة الماضي بالحاضر وإيجاد علاقة بين الأحداث التي وقعت قبلاً والتي تلتها، وهذا ما يجعل صاحب النص أشبه شيء بفنان يحاول أن يستكمل أجزاء ناقصة في صورة ما، وهذا لا يتأتى إلا باستعمال أسلوب القياس التاريخي الذي يساعده على تكوين فكرة مسبقة لسير الأحداث التي لا تتوفر حولها الوثائق اعتماداً على التطورات التاريخية المتعلقة ببحثه، والالتجاء إلى الخيال لبناء ما لم تشر إليه المصادر، فيغدو التاريخ بالنسبة إليه في هذه الحالة هو الماضي الحي الذي يجعله متفهماً لمسلك الآخرين ومبرراً لأعمالهم ومتقبلاً لشهاداتهم (9).

ثانياً : أصناف النص التاريخي

إن النص التاريخي من حيث الموضوع الذي يتناوله ومؤهلات صاحبه والمنهج المتبع في صياغته يعتبر عملاً علمياً وإنتاجاً معرفياً يعكس رأي صاحبه، ويستجيب لمتطلبات الفضاء الثقافي، ويتجاوب وحاجات القراء بمختلف مستوياتهم وتباين مشاربهم وميولهم، وهذا ما فرض تعدداً في أصناف النص التاريخي، وأدى إلى تباين توجهاته، حسبما يتضح لنا فيما يلي :

1. أصناف النص التاريخي :

تتحدد أصناف النص التاريخي حسب المنهج المعتمد في صياغتها والهدف المتوخى منها، ثلاثة أنواع هي :

أ. النص الوصفي الاستعراضي :

وهو استمرار لنمط الكتابة التاريخية التقليدية التي يزخر بها التراث التاريخي العربي الإسلامي، والتي لا تلتزم بمنهج البحث التاريخي الحديث، وإنما تسجل الأحداث من خلال أسلوب المحدثين وطريقة الإخباريين، فهي لا تهتم إلا بفعل الأشخاص وعمل الجماعات وإنما تستعرض الأحداث التاريخية وكأنها وقائع جامدة ومنعزلة ومجردة عن إطارها المكاني وبعدها الزمني، مما يجعل هذا النمط الوصفي من النصوص التاريخية مجرد خطاب قصصي روائي وعرض توثيقي فاقد الحيوية، غالباً ما يجتر الماضي ويحاول استحضار أحداثه اعتماداً على ما توفر حوله من آثار ووثائق وروايات.

فالتاريخ حسب النص الوصفي الاستعراضي "مدونة أخبار أمم وحوصلة أعمال شخصيات وعرض لمسيرة الإنسان"، يقتضي تسجيل ما تقدم من الأعمال وما تم من إنجازات بعيداً عن أي نقد أو تمحيص أو تساؤل عن الدلالات والأسباب والنتائج المتحكمة في تطور الأحداث. وهذا ما يجعله مجرد عرض كرونولوجي أو وصف قصصي يشحن الذاكرة بتفاصيل وقائع وأحداث وقعت في الماضي بعيداً عن الحركة التاريخية وفي معزل عن التطور التاريخي العام، ويكرس لدى القارئ العادي النظرة المسطحة لسير التاريخ والتناول المبسط لمسيرة الإنسان والفهم المحدود لإنجازاته.

يحتل النص التاريخي الوصفي الاستعراضي مكاناً مميزاً في مساحة المعرفة العربية اليوم، وذلك لكونه يلبي حاجة جمهور القراء بما يقدمه من معلومات تاريخية في صورة

مبسطة وأسلوب قصصي مشوق بعيدا عن التساؤل والمقارنة وغير مهتم بتحليل مصادر الخبر وعرض وجهات النظر المتباينة.

إن النص التاريخي الوصفي القصصي هو تعبير حي عن التقاليد الثقافية السائدة وتأكيد لغلبة عوامل المحافظة والجمود على دوافع التجديد والحدثة في فهمنا للماضي وتعاملنا مع الحاضر ومظهر من مظاهر الانغلاق الفكري وعدم الوعي التاريخي الذي لا يزال يطبع الذهنية العربية المثقلة بالماضي والمشدودة إلى بطولاته والتي تصر دائما على التقوقع فيه والعيش على ذكرياته بحجة تشبثها بالمثاليات والقيم وإعجابها بالأعمال والمواقف البطولية.

ب. النص التاريخي الإيحائي الموجه :

يتخذ من التاريخ وسيلة توجيه وأداة نضال وأسلوب إقناع وطريقة تربية، سواء في ما يتصل بالسلوك الفردي أو بالأخلاق العامة أو يتعلق بالمسائل السياسية والقضايا الإيديولوجية والمواقف الحزبية، فهو يسخر الماضي ليس من أجل الحاضر فقط وإنما من أجل ما يراود تحقيقه في المستقبل من مشاريع مقترحة وتوجهات مرسومة وأهداف محددة، انطلاقا من قناعات شخصية ومواقف آنية وحاجات ظرفية وظروف مستجدة، وهذا ما يجعل هذا النص التاريخي مشحونا بالعواطف طافحا بالذاتية، يأخذ بالحدود القصوى في عرض القضايا ومناقشة المواقف والأفكار، فهو غالبا ما يدعي امتلاك الحقيقة ويدعو إلى إلغاء الآخر أو تسفيهه رأيه ولا يتحرج في أن يلصق الخيانة أو يلبس الزعامة على من يريد ما دامت أحداث التاريخ بالنسبة إليه يمكن انتقاؤها أو تفسيرها وتقييمها حسب الميول والقناعات.



إلا أن النص الإيحائي الموجه الذي اجتاحت الساحة العربية منذ الخمسينيات وظل سائدا حتى الثمانينيات في ظروف المد القومي والتوجه اليساري والشعارات الوطنية، تراجع اليوم بعد أن فقد مبررات وجوده ولم يعد الفضاء الثقافي العربي يتقبله.

إن الانتكاسات التي عرفتتها الشعوب العربية وحالة الضياع التي أصبح يعيشها المثقف العربي والتيه الفكري الذي نشأ عن المحاولات العديدة لاستخدام التاريخ لأغراض سياسية وأهداف إيديولوجية، كلها عوامل سوف تقلص من المساحة التي لا زال يحتلها هذا الصنف من النص التاريخي الموجه، إن لم تضع نهاية له، بعد أن بدأ المثقف العربي يسترد وعيه ويرى في الخطاب التاريخي الإيديولوجي مجرد ملهاة في عرض مسرحي خاصة وأن أغلب المؤرخين الملتزمين بهذه الرؤية التاريخية أصبحوا لا يجدون ما يقدمونه للقراء، فغدت كتاباتهم مجرد استثارة للعاطفة وشحن للذاكرة وتبرير للأحداث من خلال مواقف اهزامية ونظرة غير واقعية لطبيعة الأشياء، وهو في ذلك يفضل الهروب من الحاضر للعيش على ذكريات الماضي ويتشبث بشعارات لم تعد تنتمي إلى العالم الذي نعيشه وتتفاعل معه.

جـ. النص التاريخي التحليلي المحايد :

يعتمد على استنطاق الأحداث واستقراء الوقائع وتحليل الأسباب والنتائج وعرض الملاحظات من خلال نظرة متفحصة وبحث معمق يأخذ بالاعتبار تفاعل العنصر البشري مع محيطه وبيئته اعتمادا على الأسئلة التي تحدد إشكالية البحث وانطلاقا من نظرة تحاول أن تلتزم بمقتضيات الحقيقة الموضوعية التاريخية "النسبية"، فلا تحاول تعظيم الأشخاص أو الحط من شأنهم بدون شواهد ودلالات وأدلة يتوصل إليها وإنما تقتصر على تحليل الظروف التي عاشوها وتفاعلوا معها وتأثروا بها وأثروا فيها.

إن النص التحليلي المحايد الذي يطمح لأن يعيد تصور الماضي في أقرب صورة ممكنة من الحقيقة، يعتبر بحق النموذج الذي نأمل من الإسهام التاريخي العربي، لكن الجهد الذي

يتطلبه والوقت الذي يستغرقه والمواصفات التي يتطلبها والشروط التي يستوجبها، كلها عوامل لم تشجع الكثير من المشتغلين بكتابة التاريخ على الأخذ به، فظل محصوراً في نطاق الجامعات ومراكز البحث، بحيث يكاد يقتصر جله على الدراسات الأكاديمية والأطروحات الجامعية .

وحتى بعد انتشار التعليم الجامعي وارتقاء مستوى الثقافة لدى عموم القراء في البلاد العربية فإن نموذج النص التحليلي ظل محدود الانتشار لا يحتل إلا مساحة ضيقة في الفضاء الثقافي العربي، وذلك لعدم تقبل المناخ المعرفي العربي له بالمقارنة إلى نموذجي النص الوصفي والنص الإيجازي. لكن المستقبل بما يحمله من تفاعل ثقافي ووعي اجتماعي وتأصل معرفي في العالم العربي كفيل بتأكيد مكانة النص التحليلي، فيغدو بذلك المؤرخ العربي رائد حكمته والمعبر عن متطلبات عصره وحاجات مجتمعه.

إن الأخذ بالنص التاريخي التحليلي هو خير مؤشر على انتقال العقل العربي من اجترار الماضي والتحمس للمواقف الآنية والآراء المجردة إلى ملاحظة هذا الماضي وتحليل معطياته من خلال نظرة نقدية تحليلية محايدة قائمة على مبدأ الشك في استخلاص النتائج واستنتاج الدلالات.

ثالثاً : نحو نص تاريخي جديد

إن القارئ العربي اليوم في أمس الحاجة إلى نص تاريخي جديد يتجاوز الأصناف المعروفة والأنماط السائدة، سواء في شكلها التقريبي الوصفي أم مظهرها السياسي الإيديولوجي أم منحها التربوي الأخلاقي أم طابعها المعرفي العلمي. وهذا ما يتطلب في رأينا على ضوء مواصفات أصناف النصوص التاريخية التي سبقت الإشارة إليها الدعوة إلى صياغة "نص تاريخي جديد" يعبر عن ثقافة موضوعية ويصدر عن مراجعة واعية للذات، انطلاقاً من رؤية جديدة ونظرة متفتحة لا تكتفي بالعرض القصصي الذي ينفي ذاكرتنا في



الماضي ولا يقنع بالفهم السطحي الذي يشدنا إلى المواقف السياسية والقناعات الإيديولوجية المنافية في أساسها للحرية الفكرية، كما لا تلتزم بالتناول العلمي المجرد الذي يبعد القارئ العادي عن الواقع ويحصر اهتمامه في نقد ومناقشة المعلومات التي تتضمنها الوثائق.

و هذا لا يتحقق في نظرنا إلا بالعمل على جعل النص التاريخي المنشود يأخذ بالنقد الموضوعي للأحداث وبالتحليل المعمق للظواهر التاريخية وبالفهم الذكي للدلالات التي تحملها الوثائق والآراء التي تعبر عنها المعلومات، لأن النص التاريخي في محتواه ودلالاته ليس تقريراً لحقيقة أو رواية لقصة أو تسجيلاً لحكمة أو أخذاً بعبارة، وإنما هو قبل كل شيء إبداع معرفي يرتبط بصاحبه ويستجيب لظروف العصر ومتطلبات المجتمع، كما لا يمكن فهمه في معزل عن ظروفه وشروطه ولا تتم معالجته بالاقصصار على عرض وقائعه وأحداثه.

إن هذا النص التاريخي المأمول الذي يستجيب لمتطلبات الثقافة العربية الإسلامية اليوم ويتفاعل معه القارئ العادي ويتفهمه المثقف وينتفع به الإيديولوجي ويستفيد منه السياسي، هو ذلك النص الذي يكون حصيلة تحرر فكري أساسه الوعي بالذات وجهد علمي غايته تحليل المادة التاريخية واستخلاص النتائج منها، وهذا ما يستوجب توفره على مواصفات محددة، لعل أهمها في نظرنا :

1. الأصالة في الطرح والإبداع في المعالجة : بحيث تكون الأفكار التي يعرضها تتماشى وقواعد المنهج التاريخي وتتصف بالجدية وتجمع بين الملاحظة والتجربة وتعبر عن الشيء الجديد الذي حددته الإشكالية. هذا ولعل أهم شيء يحقق أصالة النص التاريخي هو تعبيره عن روح العصر الذي يرجع إليه وارتباطه بالواقع التاريخي الذي يعرضه وإفصاحه عن مستوى وعي صاحبه ومقدرته على إضافة الجديد إلى ثقافة وسطه، لأن ذلك كفيل

بجعل النص التاريخي صورة حقيقية لمتطلبات المجتمع وانعكاس صادق لدرجة الوعي بالماضي.

2. الوضوح والتبليغ وحسن الأداء : من حيث تحديد الدلالات ولفت الانتباه وعرض الأفكار والقدرة على عرض ما ينتهي إليه المنهج التاريخي من أسباب ونتائج، وهذا ما يتوجب معه التفكير أولاً بدقة لتحديد الأفكار قبل صياغتها في كلمات معبرة وعبارات ملائمة تتزاج فيها الفكرة والكلمة وتتابع فيها الجمل والتراكيب في يسر وتنسيق، ومع إقرارنا بتعذر بلوغ كثير ممن يحاول كتابة التاريخ مستوى العرض المنشود، إلا أنه لا بد من أن يخلو النص من الألفاظ الموحية التي تغلب عليها العاطفة والخيال وأن يتعد من التعابير الغامضة المضطربة.

3. المنطقية والقدرة على الاستدلال : تتطلب تحليل الأحداث حسب مقتضيات المنهج التاريخي قبل عرض نتائجها، مع الالتزام بالبرهنة والحرص على الاستدلال فيما يتعلق بعمل الأفراد أو سلوك الجماعات، وذلك حتى يتوفر النص التاريخي على المنطقية التي تمكننا من الفهم الجيد للنص وتفسير أحداثه انطلاقاً من الجزئي إلى الكلي ومن الخاص إلى العام ومن المسلم به إلى المختلف حوله.

4. السعي نحو الحقيقة الموضوعية والاتصاف بالحياد والتزاهة : وذلك في حدود المعرفة التاريخية وضمن شروط المنهج العلمي، بحيث يلتزم الباحث التاريخي بالتروي في عملية الاجتهاد التاريخي، ويتطلب منه الحذر من أي استنتاج غير قائم على دليل ثابت، وذلك حتى لا يذهب بعيداً فيما يراه صائبا من آراء وأحكام. كما يتوجب عليه أيضاً الابتعاد عن تشخيص الحركات وتشبيه النظم الماضية بالنظم الحاضرة لأنها بحكم طبيعة المادة التاريخية تعتبر حقيقة نسبية مهما بلغت درجة الوثوق بها ، وبذلك يمكن لنا أن نحقق

تقدما ملحوظا في معرفتنا التاريخية ، بعد أن سمح لنا منهج البحث التاريخي الحديث أن
نقترب أكثر فأكثر من الحقائق الأكيدة في الماضي الإنساني .

خلاصة

بهذه المواصفات المأمولة يحقق النص التاريخي الهدف المرجو منه، ويصبح الخطاب
التاريخي العربي مرآة صادقة ولسانا معبرا عن هواجس الإنسان العربي واهتماماته
وخصوصيته الحضارية ونظراته للحياة، وبذلك يمكن أن تتوافق الذات العربية مع ذاكرتها
التاريخية، ويتحول الموروث التاريخي من إرث ثقیل يتعب الذاكرة إلى حافز يوقظ الطاقات
الذهنية المعطلة ويسمح بالتوطن المعرفي في البيئات العربية، فيكتمل في ثقافتنا البعد النظري
والجانب العملي بعد أن ظلا غير متوافقين (10)، وبذلك لا تقتصر في تعاملنا مع التاريخ
على الشطر الأول من تعريف ابن خلدون له بكونه "ظاهرة لا يزيد عن أخبار الأمم
والدول" وإنما نأخذ بالجزء الآخر الذي تغافلنا عنه مع أهميته، فيغدو التاريخ بالنسبة لنا
"نظرة وتحقيق وتحليل لكتابات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق"
(11).

الهوامش :

(1) نعني بالنص التاريخي في بحثنا هذا كل مساهمة تاريخية بغض النظر عن حجمها أو مستواها أم الغرض منها، سواء كانت تقريراً أم عرضاً أم دراسة أو جاءت على شكل رواية شفوية مسجلة أو وثائق أرشيفية أم أوراق شخصية أم دراسات خاصة أم كتب عامة، لأن اهتمامنا ينصب أساساً على موضوع النص ودلالاته وليس على شكله.

(2) نقصد بقواعد المنهج التاريخي الأساليب والطرق المتعارف عليها في معالجة الوثائق واستخلاص المعلومات وصياغتها والتي تنقسم إلى صنفين، أحدهما يتمثل في الخطوات التي تتبعها في إنجاز أي بحث من طرح للإشكالية وجمع للمصادر ونقد لمادتها وتحليل وتركيب للمعلومات المستخلصة منها، أما الصنف الثاني فهو يتعلق بتقنيات البحث من حيث المعالجة والشكل والإخراج كالتهميش والتنصيص والإحالة ووضع البيبليوغرافيا وتحضير الفهارس والملاحق وغيرها من تقنيات البحث. لأخذ فكرة مختصرة ومركزة، راجع : ناصر الدين سعيدوني، أساسيات منهجية التاريخ، دار القصة، الجزائر، 2000.

(3) Fénelon, La lettre à l'Académie (1716), in A. Lagarde, L. Michard, XVII^e siècle, Bordas, Paris, 1962, pp. 430 & 438.

(4) تحاول جل كتب منهجية التاريخ عرض تصور مثالي لها، لكن ذلك لا يتجاوز في الواقع تقديم النص والتوجيه، لأن اكتساب ملكة العرض التاريخي مرهون بالممارسة والتدريب والارتقاء بالأسلوب والسيطرة على اللغة.



(5) غي تويليه وجان لاتور، مهنة المؤرخ، ترجمة عادل العوا، دار عويدات، بيروت، 2001،

(6) العلوم والمعارف التي لها صلة بالتاريخ، منها الرافدة التي تمد المؤرخ بالمادة التاريخية كعلوم الآثار والوثائق والباليوغرافيا، ومنها المفسرة للأحداث التاريخية كالجغرافية والفلسفة، ومنها ما يساعد على الفهم السليم وتدقيق المعلومات كمختلف الآداب والفنون وعلوم الفيلولوجيا والرياضيات والتوقيت. كل هذه المعارف والعلوم توفر للمؤرخ الوقت والجهد وتنبهه إلى جوانب قد يغفل عنها في بحثه، وليس المطلوب منه أن يتعمق فيها إلى مستوى الاختصاص، ولكن لا بد له من إلمام أولي بها يساعده في عمله. راجع ناصر الدين سعيدوني، المصدر نفسه.

(7) Langlois et Seignobose, Introduction aux études historiques, Paris, 1898

(8) نستقي المعلومات التاريخية من مضان مختلفة منها : المعالم الأثرية والبقايا المادية والروايات الشفوية والتراث الشعبي من عادات وتقاليد بالإضافة إلى المصادر الكتابية التي تشتمل على الوثائق الحكومية والتقارير الرسمية وسجلات المحاكم والمؤسسات الوقفية ومعاملات المؤسسات والمصالح الإدارية، بالإضافة إلى الشهادات والإجازات والاتفاقيات والعقود والأوراق الشخصية والتراجم والمذكرات والتعاليق الصحفية وغيرها.

(9) لويس جوتشلك، كيف نفهم التاريخ ؟ مدخل إلى تطبيق المنهج التاريخي، ترجمة عائدة سليمان عارف وأحمد مصطفى أبو حاكمة، الدار العربية للكتاب، بيروت، 1966، ص. 163.

(11) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، ج 1، ص 30.